View metadata, citation and similar papers at core.ac.uk
brought to you by CORE
provided by The International Islamic University Malaysia Repository

أهمية المقاربة الحضارية في تفعيل التراث: مداخل توجيهية

Significance of Civilisational Approach in Activating Heritage: Key Guidelines

Kepentingan Pendekatan Tamadun dalam Mengaktifkan Warisan: Garis Panduan Utama

عبد العزيز برغوث* ، وإسماعيل حسنين**

الملخّص

تتناول هذه الورقة بالتحليل موضوع أهمية المقاربة الحضارية في تفعيل التراث الإسلامي وتجديده. وهذه الرؤية للتراث شاملة تراعي مختلف الأبعاد والعوامل التي تؤثر في فهمنا للتراث والتعامل معه بطريقة منظمة وأصيلة تعكس روحه وقيمه. وتوضح الورقة ضرورة تطوير مقاربات علمية متكاملة للتعاطي مع التراث نظرا، وفهما، وتحليلا، ونقدا، وتقويما، واستفادة على أن تلتزم بمرجعية الوحي العليا ومقاصده العامة. وقد ظهرت هناك قراءات تعالج قضايا التراث المختلفة منها: الرافض، ومنها القابل والمُقدس له، ومنها الاتجاه الوسطي المتكامل. ومن ثم تحاول هذه الورقة الإشارة إلى بعض المداخل في التعامل مع التراث بناء على هذه المقاربة. وخلصت الورقة إلى أنه لا يمكن تفعيل التراث فقط بالإرتجال والنقد غير المؤسس، ولكن برؤية منهجية تراعي طبائعه وخصائصه. وتقترح الورقة ضرورة العمل على استكمال مكونات المقاربة الحضارية وتطبيقاتها، والعمل على نشرها وتدريسها كمساقات أو برامج في الجامعات والمؤسسات المعنية.

الكلمات المفتاحيّة: المقاربة الحضارية، تفعيل التراث، مرجعية الوحي، التأسيس المعرفي.

* أستاذ بقسم المعرفة الأساسية والدراسات البينية، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا. berghout@iium.edu.my

** أستاذ مشارك، كلية التربية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. Tulib52@iium.edu.my

Abstract

This paper addresses the importance of the civilisational approach in activating and renewing the Islamic heritage. This vision of heritage is comprehensive, taking into account the various dimensions and factors that affect our understanding of heritage and dealing with it in an organised and authentic way that reflects its spirit and values. The paper clarifies the necessity to develop integrated approaches to dealing with heritage in view of understanding, analysis, criticism, evaluation and utilization provided that it adheres to the supreme reference of revelation and its general purposes. There have appeared readings that deal with various heritage issues, including: rejection, acceptance and the integrated moderate. The paper provides major keys of the civilisational approach to heritage. It concluded that the heritage cannot be activated only through unfounded criticism, but with a systematic vision that takes into account its nature and characteristics. The paper suggests the need to work on completing the components of the civilisational approach and its applications, and to work on disseminating and teaching them as courses or programs in universities and relevant institutions.

Keywords: Civilisational approach, Heritage, Tawhidic Reference, Epistemology Theorisation.

Abstrak

Makalah ini membahas pentingnya pendekatan ketamadunan dalam mengaktifkan dan memperbaharui warisan Islam. Visi warisan ini komprehensif, dengan mengambil kira pelbagai dimensi dan faktor yang mempengaruhi pemahaman kita tentang warisan dan menghadapinya secara teratur dan sahih yang mencerminkan semangat dan nilainya. Makalah ini menjelaskan perlunya mengembangkan pendekatan terpadu untuk menangani warisan dalam hal pemahaman, analisis, kritikan, penilaian dan pemanfaatan dengan syarat bahawa ia mematuhi rujukan utama wahyu dan tujuan umum. Telah muncul pembacaan yang membahas pelbagai masalah warisan, termasuk: penolakan, penerimaan dan gabungan sederhana. Makalah ini memberikan kunci utama pendekatan ketamadunan terhadap warisan. Ini menyimpulkan bahawa warisan tidak dapat diaktifkan hanya melalui kritikan yang tidak berasas, tetapi dengan visi sistematik yang mempertimbangkan sifat dan ciri-cirinya. Makalah ini menunjukkan perlunya berusaha menyelesaikan komponen pendekatan peradaban dan aplikasinya, dan berusaha menyebarkan dan mengajarnya sebagai kursus atau program di universiti dan institusi yang berkaitan.

Kata Kunci: Pendekatan ketamadunan, Pengaktifan warisan, Paradigma Tauhid, Asas Epistemologi.

المقدمة

يعالج هذا البحث موضوع "أهمية المقاربة الحضارية في تفعيل التراث: مداخل توجيهية". وليس هناك من شك بأن مسألة التراث والتعامل معها من المسائل الأكثر تداولا وإلحاحا في الواقع الإسلامي المعاصر. وقد شغلت هذه القضية المفكرين والعلماء والباحثين من مختلف التخصصات والمشارب والاتجاهات منذ وقت مبكر في تاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها. وازدادت حدة هذا السجال والجدال بتعاظم المد الاستعماري والاستشراقي الحديث، وكذلك بظهور تيارات التحديث، والعصرانة، والعلمنة والعولمة للمجتمعات العربية والإسلامية، وبروز النزعات التشددية، والتطرفية، والإرهابية في الواقع الإسلامي المعاصر، واستفحال التفكك الذي أعقب ثورات الربيع العربي، وتعاظم اتجاهات وتيارات ما بعد الحداثة وما بعد العولمة، وظهور الاتجاه نحو المواطنة العالمية، ودعوات التحرر من المطلق، والدين والتراث والتاريخ والماضي في اتجاهات ما بعد الحداثة.

ويمكن هنا الإشارة إلى تلك الكلمات المدوية التي فتحت باب الانسلاخ من الحضارة والتراث الإسلامي، والتهوين من شأنه في قول سلامة موسى: "يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوربا، زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها... أريد حرية المرأة كما يفهمها الأوربي... وأريد من التعليم أن يكون تعليماً أوربياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه... وأريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية كما هي في أوربا، وأن يُعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون... وأريد أن أرى العائلة المصرية مثل العائلة الأوربية... وأريد من الأدب أن يكون أدباً أوربياً... ثم أريد أن تكون ثقافتنا

أوربية... أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها كي نتجنبها."[1] وهذا النوع من التوجيه المتطرف والمغالي فيه يعبر عن واحدة من التصورات والمقاربات التي امتدت في التاريخ المعاصر للأمة العربية الإسلامية، ووجدت طريقها إلى وعي قطاعات من المثقفين والباحثين، وأثرت في أفكار العديد من اتجاهات العصرنة والحداثة وغيرها.

وبلغت حركة التعاطي مع التراث الإسلامي أوجها الأن، وتكاثرت الآراء والتوجهات والمواقف حوله بشكل خاص إلى درجة أنه أصبح موضوع الساعة، إما تقطيعا فيه، واستهانة به، وتهوينا من شأنه ومضامينه ومناهجه وإنتاجه، وأطروحاته، ومصادره، وآلياته...وإما نصرة ومدافعة عنه، وانتصارا له، وترسيخا لمضامينه ومناهجه وآلياته وإنتاجه وأطروحاته ومصادره ومعارفه وعلومه.

واشتد آوار هذا التدافع المتعاظم بين الاتجاهات المختلفة سواء السائرة على خط التهوين والاستنقاص والتهميش والاستقطاع لهذا التراث من وعي الأمة وتاريخها أو السائرة على خط المناصرة والاستزادة والترسيخ والمدافعة عن هذا التراث في مضامينه، ومناهجه، وتطبيقاته في مختلف مناشط الفعل الحضاري الإسلامي المعاصر. ونتيجة لهذه المدافعة العلمية والفكرية ظهرت مقولات ومواقف ومدارس ما يعرف بالحداثة وما بعد الحداثة، والعصرانة، والتطوير، والتجديد للتراث. ولكل مدرسة أو فريق مقولاته وأساليبه وأهدافه ومناهجه وآلياته التحليلية والتنظيرية والتوجيهية ضعفا وقوة. "وقد كان لما تعرضت له الأمة الإسلامية من التحديات الثقافية العاتية قديماً وحديثاً أثر بيّن في الطريقة التي تعاملت بها أجيالها مع التراث؛ إذ التحدي الثقافي يستهدف أول ما يستهدف في غزو الأمم تراثها، فتكون إذن وقائع المعركة دائرة بعنف على ساحته: استهدافاً لتحطيمه من قِبل الغزاة إذ ذلك هو المدخل الأمثل لتحطيم كيان الأمة. واستعصاماً به للدفاع عن الذات الثقافية من قبل المتعرضين للغزو

[1] سلامة موسى، **اليوم والغد**، (القاهرة: سلامة موسى للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٢٨م)، ص٥-٦.

إذ ذلك هو الحبل الجامع لكيانها. وكلما كان التحدي الثقافي المستهدف لأمة من الأمم أعنف كانت آثار المعركة على ساحة تراثها أبلغ في طرفي الاستعصام والاستهداف جميعاً. ولعل الغزو الثقافي الذي تتعرض له الأمة الإسلامية في العصر الحديث هو الغزو الأعنف الذي تتعرض له في تاريخها كماً وكيفاً ولذلك فقد كان أثره في ساحة التراث بليغاً، من حيث الموقف الذي اتخذه المسلمون في التعامل معه تأثراً بهذا الغزو سلباً وإيجاباً، وهو الموقف الذي شابَه بسبب ذلك كثير من الخلل الذي يحتاج بالغ الحاجة إلى المراجعة والتصحيح، في سبيل موقف يُقوم التراث تقويماً صحيحاً، ويوظفه توظيفاً فاعلاً في الحفاظ على كيان الأمة من جهة، وفي الدفع إلى حركة النهضة الحضارية المبتغاة من جهة أخرى."[٢]

ويدور السؤال الرئيسي لهذه الورقة حول بيان أهمية النظرة أو المقاربة الحضارية المتكاملة، وضرورتها للتعاطي مع مسألة التراث الإسلامي والتعامل معه من أجل تفعيله والاستفادة منه بالطرق الصحيحة. وتهدف الورقة إلى تطوير تصور عام، وتقديم جملة مداخل تعين على تفهم البناء الكلي الشامل للتراث من أجل مقاربته الصحيحة وتفعيله. والمقاربة الحضارية –كما سيأتي تعريفها لاحقا- أهم المقاربات للتعاطي مع التراث، وتناول قضاياه بصورة تكون أقرب إلى واقعنا وأكثر فائدة. ويمكن القول بصورة عامة بأنها تهتم أكثر بالرؤية الحضارية المؤسسة على عمق فكري، ومباديء فكرية ومعرفية تُستقى من النموذج المعرفي الإسلامي، ومن النظام المقاصدي والقيمي الإسلامي.

وتركز هذه الورقة على تناول المقاربة الحضارية للتراث وضرورة الرؤية المتكاملة في التعامل معه. وتضع بعض الموجهات والمداخل التي ستكون مُعينا لكل من يتعاطى مع التراث تفهما وتحليلا وتقويما وتطبيقا. وتعرج الورقة على نقاط أساسية

---

[٢] عبد المجيد النجار، **مقاربات في قراءة التراث**، (تونس: ط. الدار المالكية، ط١، ٢٠١٥)، ص ٥٩.

هي: ١) الإطار النظري العام لدراسة المقاربة الحضارية في تفعيل التراث الإسلامي. ٢) ثانيا: ملاحظات حول المداخل الكبرى للمقاربة الحضارية في تفعيل التراث. وتتضمن الورقة كذلك مقدمة وخاتمة وقائمة بأهم المراجع والمصادر المُستفاد منها.

أولا: الإطار النظري العام لدراسة المقاربة الحضارية في تفعيل التراث

١- مصطلح "المقاربة الحضارية"

ومن أجل دراسة تحليلية معمقة "للمقاربة الحضارية" للتراث من اللازم تقديم بعض الأطر المنهجية العامة والموجهات الأساسية التي ينبغي أن ندرس ضمنها هذا الكائن الحيوي التاريخي والراهن والمستقبلي الذي يسمى التراث الإسلامي. ومن الأهمية البدء بتحديد بعض المصطلحات الأساسية وهي "المقاربة الحضارية" و"التراث الإسلامي".

وتتداول هذه الورقة مصطلح "المقاربة الحضارية"، وهي مؤلفة من مفردتين متداخلتين. ومصطلح "المقاربة" هو في الأساس عبارة عن بنية أو تصور أو نوع من التأطير المنهجي يوضح طريقة أو أسلوب أو عملية تناول ظاهرة أو موضوع معين بالدراسة المنظمة التي تكون لها رؤيتها، وإطارها النظري، ومنهجيتها، وأدواتها التحليلية وتطبيقاتها. ومفهوم "المقاربة" أو باللغة الإنجليزية (approach) مفهوم أساسي يدور حول تقديم تصور أو طريقة للتحليل ومعالجة الظواهر وفق منظور ما.

وترد هذه المفردة في قواميس اللغة العربية المتعددة بمعان كثيرة. وأقرب هذه المعاني إلى هذه الدراسة هو ما ذُكر في معجم المعاني الجامع: "مُقارَب: اسم مصدر قَارَبَ، مُقَارَبَةُ نَصٍّ: النَّظَرُ فِيهِ، تَحْلِيلُهُ لِمَعْرِفَةِ أَوْجُهِهِ... مُقارَبةً، فهو مُقارِب،

والمفعول مُقارَب...قَارَبَ نَصّاً أَدَبِيّاً: تَنَاوَلَهُ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّفْسِيرِ..."[٣]. وورد كذلك مفهوم "مقاربة مندمجة للمجال" بمعنى "منهجية التعامل مع المجال الجغرافي على مستوى تدبيره واستعماله بشكل يراعي الانسجام والتفاعل بين مختلف مكوناته. وكذلك معنى المعجم "المقاربة النسقية" على أنها: "منهجية لمعالجة موضوع أو دراسة ظاهرة أو مشكلة ما بشكل يبرز الترابط و التفاعل بين مختلف مكوناتها (عناصرها)[٤]. وفي نفس السياق ذهب صاحب معجم (الرائد) إلى أن "المقاربة" تعني "معالجة موضوع أو دراسة ظاهرة أو مشكلة ما بشكل يبرز الترابط والتفاعل بين مختلف مكوناتها."[٥]

وجاء كذلك في معجم (المغني) بأن "المقاربة" تعني: "كيفية معالجة الموضوع، أي عالج المشكلة وتناولها بالتحليل والنظر والدراسة بمقاربة منطقية."[٦] ومن هنا يمكن القول بأن بعض الدلالات اللغوية لمفردة مقاربة تتماشى ومفهومها في هذه الورقة. وهنا تركيز على أبعاد مهمة في تعريف "المقاربة" منها أنها طريقة أو منهجية للتعامل مع قضية ما، وأنها كذلك تعبر عن تدبير وإستعمال يكون فيه انسجام وتناسق وتفاعل بين أجزائه ومكوناته. والمقاربة بهذه الدلالة اللغوية الأولية تركز على النظر والتحليل المتكامل، والتفسير المنظم لموضوع أو مسألة ما من أجل التعرف على جوانبها وأوجهها المتعددة.

وعلى مستوى التعريف الإصطلاحي هناك معاني وآراء متعددة بشأنها. ويمكن أن تُعرف مثلا في المجالات التربوية والتعليمية على أنها: "مجموعة التصورات والمبادئ

---

[٣] انظر: **معجم المعاني الجامع**، https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A9/

[٤] **معجم المعاني الجامع**، https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A9/

[٥] جبران مسعود، **معجم الرائد**، (لبنان: دار العلم للملايين، ١٩٩٢م).

[٦] عبد الغاني أبو العزم، **معجم المغني**، ٢٠١١م، https://shamela.ws/rep.php/book/2236.

والإستراتيجيات التي يتم من خلالها تصور منهاج دراسي وتخطيطه وتقيمه"[٧] وكذلك على أنها: "تصور نظري مكون من مجموعة مبادئ يتأسس عليها برنامج دراسي معين."[٨]

وعلى هذا الأساس يمكن التأكيد أن مفهوم "المقاربة" يدور حول الطريقة أو الأسلوب الذي يُتبع لتناول موضوع ما بالتركيز على تقديم معالجة أو تصور أو تحليل أو تفسير منهجي للظاهرة أو المشكلة محل الدراسة. ومن ثم، فإن هذه الورقة تعتبرها الطريقة المنظمة لتناول موضوع التراث وتفعيله، من خلال وضع إطار منهجي ومداخل أساسية مُوجهة تساعد على التحليل والفهم والنقد والتقويم والاستفادة منه.

وأما بالنسبة لمصطلح "الحضارية" في سياق هذا البحث فيعني الإطار التحليلي الأشمل الذي يجمع ويكامل بين عناصر متعددة تسمح بالنظرة الكلية القيمية الشمولية للمشكلات والظواهر، وتوضح الأبعاد المتداخلة التي تؤثر في تحليل الظواهر والمشكلات. ومن جهة أخرى يركز مفهوم "الحضارية" على منظومة القيم التي ينبغي أن تحكم عمليات التحليل والتفسير للظواهر، وكذلك المقاصد والأهداف التي ينبغي ترسيخها في التحليل. بالإضافة إلى استدعاء الرؤية البينية المتداخلة بين العلوم والمعارف، واستخدام معطيات علوم متعددة لتحليل ظاهرة اجتماعية معينة. وبعبارة أكثر دلالة أن نعالج القضايا في إطار الحضارة بأكملها وليس بعدا أو منتوجا من منتجاتها الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو العلمية أو المادية أو الروحية أو العسكرية...إلخ. وهذا الذي عناه مالك بن نبي بقوله: "فإذا ما درسنا أوجه النشاط

---

[٧] **الوثيقة المرافقة لمنهاج اللغة العربية**، وزارة التربية الوطنية، (الجزائر: الديوان الوطني للموضوعات المدرسية، ٢٠١٣)، ص ١١.

[٨] نهاية المدرسة، **الشغل والكفاءات والمعارف**، (المغرب: مكتبة توبا يدسون، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م)، ص٢٩.

في بلد معين، وجب علينا لكي نفهمها أن نردها إلى اطار حضارة."[٩] وبعبارة أخرى إن المقاربة الحضارية هي التي تتصور المشكلات في اطارها الحضاري الشامل، وتتعامل مع مختلف مستويات التحليل المؤثرة فيها، وتأخذ بعين الاعتبار مختلف الأبعاد "ضمن حدود حضارة معينة."[١٠] ذلك لأن :"مشكلة كل شعبٍ هي في جوهرها مشكلة حضارته. ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانيَّة. وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها..."[١١]

ومن هنا فإن "المقاربة الحضارية" تعني في هذه الورقة الإطار أو البنية التحليلية المتكاملة التي تتكون من جملة قواعد وأسس ومبادئ معرفية وقيمية ومنهجية تساعد على النظرة الكلية للمشكلات، والتعاطي المنهجي العلمي معها، وتعمل على كشف الأبعاد الحضارية والفكرية العميقة لها، وحلها على مستوى موسع تتداخل فيه المعارف والمناهج والخبرات. ولما كان هذا هو شأن "المقاربة الحضارية" وعمقها وأهميتها، فإن أي تحليل للتراث ينبغي أن يستفيد من مبادئها وأسسها، ونظرتها الكلية المتداخلة والشاملة للعوامل، والعناصر التي تؤثر في دراسة التراث وتحليليه ونقده وتقويمه وتفعيله.

٢- مصطلح "التراث الإسلامي": من دراسة المضامين إلى المناهج والمقاصد والقيم

لا شك بأن التراث الحضاري لأي أمة من الأمم هو جوهرها وروحها وشخصيتها وصورتها التي تتجلى فيها معالم هذه الأمة، وقيمها، ورؤيتها الكونية، وفلسفتها الحياتية، وحضارتها ومدنيتها ومجتمعها، ونظامها الثقافي، وإرثها العلمي

---

[٩] مالك بني نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦م)، ص٣٥.

[١٠] بن نبي، **القضايا الكبرى**، ص٤٩.

[١١] بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٩.

والفكري والأدبي والفني والجمالي. ولكي نضع تعريفا مناسبا للتراث لأغراض التحليل في الورقة الحالية من المفيد تثبيت التعريف اللغوي "للتراث" كما ورد في بعض معاجم اللغة. ورد في (معجم المعاني الجامع) تعريف التراث على أنه: "تُراث: اسم، التُّرَاثُ: الإِراثُ، تَرَكَ تُرَاثاً هَائِلاً: إِرْثاً تُرَاثُ الأُمَّةِ: مَا لَهُ قِيمَةٌ بَاقِيَةٌ مِنْ عَادَاتٍ وَآدَابٍ وَعُلُومٍ وَفُنُونٍ ويَنْتَقِلُ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ التُّرَاثُ الإِنْسَانِيُّ التُّرَاثُ الإِسْلاَمِيُّ التُّرَاثُ الأَدَبِيُّ. وتأتي كذلك بمعنى: ما يُخَلِّفه الميِّت لورثته: تضمُّون نصيبَ غيركم إلى نصيبكم. ومن جهة أخرى يُعرف التراث على أنه: كلّ ما خلّفه السَّلف من آثار علميّة وفنية وأدبيّة، سواء مادِّيَّة كالكتب والآثار وغيرها، أم معنوية كالآراء والأنماط والعادات الحضاريّة المنتقلة جيلاً بعد جيل، مما يعتبر نفيسًا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه التُّراث الإسلاميّ/ الثَّقافيّ/ الشَّعبيّ."[١٢]

وهذا التعريف الأخير مهم لأنه يشير إلى المكونات المتعددة للتراث؛ بما فيها المكونات المادية والمعنوية والنفسية والثقافية، كما يشير إلى عملية تناقل التراث وأهميتها في التواصل والتكامل بين الأجيال. ويركز كذلك على قيمة التراث بالنسبة للجيل اللاحق والأجيال المتعاقبة. ومن ثم يمكن تعريف التراث الإسلامي عموما على أنه هو ما أنتجه العقل المسلم -في تفاعله مع الأحداث، والوقائع، والأمم، والشعوب، والحضارات التي عاصرها- من علوم، ومعارف، وفنون، وعمران، وفكر، ومؤسسات، وقيم، وابداعات في مختلف المجالات مسترشدا بالمرجعية الإسلامية العليا، ومتفاعلا مع معطيات وشروط الواقع التي عاصرها داخليا وخارجيا في كل حقبة من حقباته المتراكمة والمركبة. وأن ما أنتجه العقل المسلم لا ينبغي أن يُقصر فقط في المضامين والمعارف والأفكار، ولكن فيما ورائها من فلسفات، ومناهج، ونظريات وأطر تحليلية، وأدوات منهجية، ومقاصد وأهداف، وأخلاقيات، ومؤسسات وأنشطة

[١٢] **معجم المعاني الجامع**، https://www.almaany.com/ar//dict/ar-ar//

مركبة ومعقدة، وأحداث ووقائع، وسياقات وعوامل مؤثرة من الداخل والخارج، وبنيات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية وحضارية أثرت في هذا الإنتاج التراثي الضخم. وعليه فما نقرأه ونتداوله في الكتب التراثية ما هو إلا المظهر والتجلي الخارجي لعمق هذا التراث الإسلامي وأنساقه وفلسفاته وقيمه العليا، وقوانينه وطبائعه التي انطبع بها، واصطبغت به مسيرته وصيرورته الحضارية عبر العصور والحقب المتعاقبة منذ أن بدأ مسيرته الاجتماعية في العصر النبوي والعصر الخلفائي وعصور التابعين.

وعليه ينبغي أن ندرك بأن التراث الحضاري في حقيقته وأثاره-في سياق هذا البحث- ليس هو فقط الماضي أو التاريخ الذي مضى وولى، وليس هو فقط المعارف والعلوم والإنجازات الحضارية والمدنية والعمرانية التي غطت مختلف مجالات الحياة، ولكن التراث الحضاري هو أعمق من ذلك. وما هذه النتاجات والإنجازات والخبرات والحلول المنتشرة في سائر مناشط التراث الإسلامي وفعاليته إلا تجليات وتمظهرات لأركان التراث وأسسه، ومصادره وقيمه ومناهجه ورؤاه. ومن ثم فلابد عند البحث عن التراث الحضاري الإسلامي أن نبحث أولا عن الرؤية الكونية، والإنسان والمجتمع والفكر والمنهج والمشروع والثقافة والرسالة والحضارة التي ألهمت هذا التراث وأخرجته للحياة وأصبح واقعا مجتمعيا تاريخيا أثر في الماضي ويؤثر في الحاضر وسيؤثر في المستقبل.

وقدم طه عبد الرحمن تعريفه للتراث بعد دراسات عميقة أخذت ردحا طويلا من الزمن نظرا وتحليلا وتفسيرا وبناء ونقدا وتقويما، وبعد جولات وصولات في دراسته للتراث يقول: "وإذا كان لابد من وضع تعريف جامع للتراث، فلا أجد سبيلا إلى ذلك أفضل من أن أقارنه بمفهومين يدخلان في حقله هما: الثقافة والحضارة؛ فالظاهر أن التراث أعم من الثقافة ومن الحضارة؛ فإذا كانت الثقافة هي إنتاج خطابي وسلوكي يستند إلى قيم قومية حية، أي قيم قومية مرغوب فيها ومطلوب العمل بها،

فإن التراث– بالإضافة إلى ما يشتمل عليه من قيم قومية حية –قد ينطوي على قيم قومية لم يعد مجتمع الأمة الخاص يرغب فيها أو يطلب العمل بها، أي قيم قومية ميتة؛ وكذلك إذا كانت الحضارة هي إنتاج خطابي سلوكي يستند إلى قيم إنسانية حية، فإن التراث– بالإضافة إلى ما يشتمل عليه من قيم إنسانية حية – قد يتضمن قيما إنسانية ميتة، أي قيما إنسانية لم يعد المجتمع الإنساني العام يرغب فيها أو يعمل بها. وبناءا على هذه المقارنة فيمكن وضع التعريف التالي للتراث الإسلامي العربي، وهو: أنه عبارة عن جملة المضامين والوسائل الخطابية والسلوكية التي تحدد الوجود الإنتاجي للمسلم العربي في أخذه بمجموعة من مخصوصة من القيم القومية والإنسانية حية كانت أم ميتة."[١٣]

وهنا نلاحظ تحديدا موسعا ومتداخلا لمفهوم التراث يركز على أهمية منظومة القيم في بنية التراث وتشكيله، كما يؤكد على أهمية المضامين، والوسائل الخطابية والسلوكية[١٤] التي لها أثر مباشر فيما ينتجه المسلم من معارف وعلوم وفنون وثقافة... وغيرها من الإنتاج التراثي المتنوع. وبهذه الرؤية المتميزة يؤكد طه عبد الرحمن نظرته التكاملية بقوله: "إن النظرة التكاملية في التراث التي أدعو إليها هي النظرة التي تتجه إلى البحث في التراث–آليات ومحتويات– من أجل معرفته من حيث هو كذلك، على اعتبار أنه كل متكامل لا يقبل التفرقة بين أجزائه، وأنه وحدة مستقلة لا يقبل التبعية لغيره."[١٥] وعليه ينبغي لنا تبني النظرة التكاملية في التعاطي مع التراث؛ بحيث نعالجه ككل متكامل غير مجزوء أو مقطوع أو مبتور من جهة، وأن نعالجه في أصالته وطبيعته هو دون استلاب أو اسقاط خارجي أو توظيف لأنساق أو بنى أو مقاربات خارجة

---

[١٣] طه عبد الرحمن، **حوارات من أجل المستقبل**، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١١م)، ص ١٧.

[١٤] من الأهمية أن يعود القارئ إلى تعريف التراث في سياق فكر وجهود الأستاذ طه عبدالرحمن في إطار منظومته التحليلية إذا ما أراد فهم رؤيته المتكاملة له.

[١٥] طه عبد الرحمن، **حوارات من أجل المستقبل**، ص ٢٨–٢٩.

عن طبائعه وطوعه، لأن ذلك يمسخ التراث مسخا آخر ويخرجه عن طبائعه الإسلامية؛ مما يعرضه للتشويه والاستلاب. وهذا الذي يسميه طه عبد الرحمن بالنظرة التكاملية هو الذي بطريقة ما ننعته في هذا البحث بالمقاربة الحضارية التي سنوضح أبعادها وعمقها في العناصر الآتية من الدراسة.

فأي محاولة للتعاطي مع التراث الإسلامي من غير الرجوع إلى أدواته وآلياته ومناهجه وقوانينه وقوالبه وقيمه التي تأسس عليها، وارتوى بمعينها وروحها فيعد ضربا من الإستلاب القاتل الذي لا يزيد التراث إلا عزلة وتهميشا وضعفا ونكرانا واستلابا. وهذا الذي أكده طه عبد الرحمن في قوله "إيمانا منا بأن التراث كان و لم يزل روحا لا حياة لفكر دونها، إلا أن يلقي بنفسه في أحضان تراث غيره يسلبه استلابا."[١٦]

وإذا كان التراث يسري في وعي الأمة وثقافتها وحضارتها ومجتمعاتها بمثابة الروح في الجسد، وبمثابة الجوهر الذي يحدد لهذه الأمة هويتها وبوصلتها واتجاهها، فإنه من اللازم أن يتحدد لدينا بطريقة واضحة صحيحة لا لبس فيها. وعليه يمكن القول بداية بأن التراث الحضاري أو الإرث الحضاري ليس هو فقط الماضي أو التاريخ، ولكن فيه أشياء أخرى متعددة ومتنوعة. وهذا التراث الحضاري الإسلامي بمفهومه الشمولي العام هو ما تعارف أهل الشأن[١٧] والعلم والخبرة فيه بإنه نتاج أمة الإسلام الممتدة جغرافيا وثقافيا وإثنيا وعرقيا وحضاريا. وهو "تلك الحصيلة[١٨] من المعارف والعلوم والعادات والفنون والآداب والمنجزات المادية التي تراكمت عبر

---

[١٦] طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، (المغرب: الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط٢، ١٩٩٣م)، ص٩.

[١٧] هنا نعرف التراث من منظوره الإسلامي العام، ولكن هناك تعاريف له على حسب رؤية وخلفية الباحثين أو المؤسسات التي تتناوله وتتداوله من أجل الأغراض التي تريد أن تحققها. فالمستشرقون والعصرنيون ومدارس الحداثة وما بعد الحداثة لها مقولاتها وآرائها في التعريف يمكن الرجوع إليها في مصادرها.

[١٨] يمكن أن يُحقب التراث إلى حقب زمنية وتكون فيه الحقبة المؤسسة الأولى الأقرب إلى عصر الخلافة الراشدة وعصور التدوين والإزدهار الفكري المؤسس هي عمق التراث الإسلامي، وتأتي بعدها الحقب الأخرى تبعا.

التاريخ. وهو نتاج جهد إنساني متواصل قامت به جموع الأمة عبر التاريخ، وعبر التعاقب الزمني أصبحت هذه الحصيلة المسماة التراث تشكل مظاهر مادية ونفسية ونمطاً في السلوك والعلاقات وطريقة في التعامل والنظر إلى الأشياء[١٩].

وبناء على "المقاربة الحضارية" التي تبنتها هذه الورقة يمكن أن نعرف التراث الإسلامي على أنه: نتاج ومحصلة لتفاعل العقل المسلم مع الواقع والتحديات والسياقات والوضعيات التي عاشتها الأمة الإسلامية منذ نشأتها وفي مختلف حقب تطورها، وبشكل خاص في القرون التأسيسة والتطويرية الأولى مستهدية بتوجيهات الوحي (قرآنا وسنة)، ومستفيدة من الخبرة الإنسانية المتوفرة والمتاحة في تلك الفترات. ويشتمل هذا النتاج الضخم الذي نسميه تراث حضاري على:

- المضامين أو التراث الفكري والمعرفي والعلمي والشرعي والفقهي والعقدي. ويدخل ضمنها: العلوم الإسلامية والشرعية، والعلوم الكونية والطبيعية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم العمرانية وغيرها من المعارف التي تضوي تحت فضاء التراث الواسع،
- المضامين أو التراث السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والقضائي والإداري ويدخل ضمنها: الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والقضائي والإداري، والمؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والقضائية والإدارية، والوقائع والأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والقضائية والإدارية.
- المضامين أو التراث الثقافي والحضاري والعمراني والفني والجمالي ويدخل ضمنه: مسائل العمران والمدنية، والثقافة وأساليب الحياة والفنون

[١٩] محمد محفوظ، **الإسلام والغرب وحوار المستقبل**، (مصر: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤م)، ص ١٠٨.

والتراث الشعبي بتنوعاته، والأدابيات والجماليات بمفهومها الشمولي كونيا وإنسانيا.

- المناهج والآليات ويدخل ضمنها: النظريات والمنهجيات، والأدوات والوسائل والأساليب، اللغة وعلوم الآلة...وغيرها
- القيم والفلسفات والأخلاق والمقاصد والغايات، ويدخل ضمنها: المنظومة القيمية، والمنظومة الفلسفية المعرفية، والمنظومة الأخلاقية، والمنظومة المقاصدية
- مصادر التراث الإسلامي ويدخل ضمنها: الوحي قرآنا وسنة صحيحة وهما مصدران مقدسان ثابتان يخرجان عن نطاق التراث البشري، العقل والخبرة والتجربة والفطرة والوجدان والتاريخ، والتراث الإنساني الآخر ما توافق منه مع روح التراث الإسلامي ووافق معيار الوحي.
- الفاعلون والمشاركون في تشكيل التراث الإسلامي. ويدخل ضمنها:
- الخلفاء والحكام وأهل الملك، الفقهاء والعلماء والمتكلمون والفلسفة والمتصوفة وأصحاب المعارف والصناعات على تنوعها، والمجتمعات التي عاصرت إنتاج التراث وأسهمت فيه في مختلف الفترات، والمؤسسات ونظم الوعي والتفكير والإدارة، والمساهمون من خارج دائرة المجتمع الإسلامي من المجتمعات الإنسانية الأخرى التي كانت في تواصل وتفاعل وتشبيك مع المسلمين في مختلف فترات وحقب التراث الإسلامي المتعاقبة.

٣- موقع التراث في مكونات الوعي الحضاري الجمعي للأمة

ولما كان التراث بصورة عامة بهذه القيمة والأهمية والمكونات، فإنه لدى الأمم الراقية والشعوب الرشيدة يصبح قيمة مضافة، وعاملا فاعلا في ربط الماضي

بالحاضر وبالمستقبل؛ بحيث تقوم عمليات التواصل والاستمداد الطبيعي للأجيال من تراثها المتعاقب أخذا وعطاءا ونقدا وتطويرا وتحسينا وبناء متواصلا يساهم فيه كل جيل بالقسط أو النزر الذي يتسير له. ويفسر عبد المجيد النجار هذا الارتباط والترابط بين الأجيال بفضل عامل التراث الإسلامي الذي تميز عن غيره من إرث الأمم الأخرى قائلا: "وإذا كان للتراث في سير الأمم بصفة عامة موقع خطير في توجيه الحياة، فإن التراث الإسلامي كان له في حياة المسلمين من الموقع الموجِّه لحياتهم ما لم يكن لتراث أية أمة أخرى، وذلك لما هو مصبوغ به من صِبغة دينية على اختلاف فروعه وتنوعه؛ إذ تعاليم الدين الإسلامي –ما هو معلوم– شمولية في تناولها بالبيان لحياة الإنسان، فكان بذلك تفاعل الأجيال اللاحقة لتراث السالفة تفاعلاً للعنصر الديني باعتبار تلك الصبغة الدينية للتراث."[٢٠] ومن ثم ينبغي التأكيد على القيمة الحضارية للتراث في حاضرنا ومستقبلنا، وعلى ضرورة التبين الفعلي من موقع التراث في كامل البناء الحضاري للأمة الإسلامية ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

وقد عبر طه عبد الرحمن عن قيمة التراث وموقعه بقوله: "لا سبيل إلى الانفكاك عن حقيقة التراث التاريخية ولو سعى المرء إلى ذلك ما سعى، لأنها وإن بدت في الظاهر حقيقة بائنة ومنفصلة بحكم ارتباطها بالزمان الماضي، فهي في جوهرها حقيقة كائنة ومتصلة تحيط بنا من كل جانب وتنفذ فينا من كل جهة، كما أنه لا سبيل إلى الانقطاع عن العمل بالتراث في واقعنا، لأن أسبابه مشتغلة على الدوام فينا، آخذة بأفكارنا وموجهة لأعمالنا، متحكمة في حاضرنا ومستشرفة لمستقبلنا، سواء أأقبلنا على التراث إقبال الواعي بآثاره التي لا تنمحي أم تظاهرنا بالإدبار عنه، غافلين عن واقع استلائه على وجودنا ومداركنا."[٢١]

---

[٢٠] عبد المجيد النجار، **مقاربات في قراءة التراث**، ص٥٨–٥٩، ط. الدار المالكية، تونس، ط١، ٢٠١٥م.

[٢١] طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، ص١٩.

ومن هنا ينبغي لاؤلئك الذين يستهينون ويهونون من شأن التراث أن يستخدموا ملكات الرشادة والرشد في عقولهم لكي يبصروا حقيقة التراث وقيمته الحضارية في تطور الأمة وتقدمها بعيدا عن التغليط، والتشويه، والتحبيط، والاستلاب. ولهذا السبب ينبغي لنا أن نقدم تعريفا متكاملا وشاملا للتراث يبين حقيقته الكلية المتكاملة بعيدا عن العاطفة والتجزيء والتبعيض والتقطيع لمعانيه ومكوناته ومشمولاته ومضامينه.

٤- الخصائص العامة للتراث الإسلامي وأهميتها في "المقاربة الحضارية"

وإذا ما كانت المقاربة الحضارية تنظر إلى التراث بهذا الوسع والعمق، وتدعو إلى منهج متكامل في تناوله والتعاطي معه، فإنها كذلك تركز على ضرورة استيعاب خصائص هذا التراث والعوامل الأساسية التي تقف وراء قوته واستمراريته. وتؤكد على ضرورة الاستثمار والاستفادة من هذه الخصائص في بناء مقاربة علمية فعالة من أجل تفعليه.

ومن أسباب تركيز هذه الورقة على بيان بعض خصائص التراث الإسلامي هو المحاولات المستمرة لتفكيكه، والاستنقاص من قيمته، والتهوين من دوره وأثره الحاضر والمستقبلي من قبل بعض المناوئين والمتربصين به. ومن بين ما يُتهم به التراث الإسلامي ومناصروه هو أنه تراث بشري كغيره تسري عليه مناهج البحث والنقد والتحليل والتفكيك التي تجري على غيره. وبعبارة أخرى لماذا يكون التراث الإسلامي هو الاستثناء من بين كل تجارب التراث البشرية التي تسري عليها مناهج البحث المعروفة والمتداولة...ومادام هو كذلك فلماذا يحاول المسلمون استثناء التراث الإسلامي -بجعله مستمرا ومتداولا في زماننا المختلف عن زمانه- على الرغم من أن ما قدمه يزيد عمره عن ١٠ قرون وأكثر بكثير. فكيف يبقى تراث أو علم أو فقه أو انتاج بشري صالح لكل زمان ومكان على الرغم من التغير الهائل في طبيعة الواقع،

وطبائع العمران البشري، وفي حياة الناس بين واقعنا اليوم والواقع القديم الذي نشأ فيه التراث. أيعقل أن تبقى نظريات وفتاوى وحلول ومعارف هذا التراث صالحة لزماننا وواقعنا العلمي والتكنولوجي والصناعي والتقني الخارق على الرغم من أنه أُنتج في بيئة صحراوية بدوية مقفرة، وفي مجتمعات عمرانية[٢٢] بسيطة لم تكن معقدة تنظيميا وبشريا واجتماعيا وتقنيا وتكنولوجيا؟

وليس من أهداف هذه الورقة الإجابة المباشرة عن هذه الاعتراضات والأطروحات، ولكن التنبيه إلى بعض خصاص التراث وعوامل القوة التي أمتاز بها، والتي تعتبر أساسية في فهمه والتعاطي معه، وفي وقوفه سدا منيعا أمام من يحاولون تجاوزه وتحديه. ومن خصائص التراث وعوامل قوته:

١- ارتباط التراث الإسلامي في الكثير من مضامينه بالوحي ومرجعيته، ومنظومة قيمه ومقاصده العليا، ورؤيته الكونية وتصوره للوجود والحياة والإنسان يجعل منه تراثا مرجعيا وملتزما بمنظومة حياتية محددة؛ مما يجعل دراسته ومحاولة تقويمه ونقده خارج هذه المنظومة المرجعية أمرا صعبا يؤدي في العادة إلى تشويه مضامينه، وتحريفه عن مساراته ومسالكه الطبيعية الملائمة لطبائعه،

٢- النزعة المنهجية في التراث والاهتمام بعلوم المناهج والأدوات المنهجية وخاصة في مختلف العلوم والنشاط الفكري عامة؛ مما جعل الكثير من مضامين

---

[٢٢] ينبغي هنا التأكيد على أن التراث الإسلامي كان في الأصل وبحكم دعوة الإسلام العالمية منفتحا على حضارات العالم القديم ورؤاها الكونية وتصوراتها الدينية وتراثها الحضاري والعلمي أنذاك. وتمكن من التفاعل معها سلبا وإيجابا، وحاول الاستفادة من منها بما أتاحته ظروف الواقع، ومعطيات الاجتماع والعمران والتاريخ في تلك الحقب التراثية والحضارية المتعددة؛ مما يؤكد على قوة التراث واستفادته من الآخرين بمعية توجيهات الوحي ومرجعيته العليا.

التراث ومنتجاته خاضعة للمنهج وشرائطه وضوابطه ونواظمه[٢٣]، وهذا يجعل التعاطي معه بغير المناهج المناسبة له مما لا يفيد، وقد يعطي نتائج عكسية؛

٣- النزعة السُننية والاهتمام بالسنن والقوانين جعل التراث يرتكز على حقائق كونية وحضارية ودينية راسخة في تعامله مع الواقع والحياة؛ مما أعطى قوة للتراث، وأعطى استمرارية للكثير من مضامينه، ومعارفه وعلومه المؤسسة على القوانين والسنن المضطردة والعامة. وهذا عامل قوة أخرى في التراث ينبغي الانتباه إليه في التعاطي معه،

٤- النزعة الفطرية والاهتمام بالفطرة بوصفها مصدر من مصادر الوعي، وتوافقه مع الكثير من طبائعها وقوانينها وخلقتها، ودعوته إلى الإلتزام بما يتوافق والفطرة التي خلق الناس عليها،

٥- النزعة العقلية والعلمية، وتتأتى من الاهتمام بموقع العقل ودوره الحيوي في الفكر والتفكر، وفي بناء المعرفة والابداع والابتكار، وجعله مصدرا من مصادر المعرفة الأساسية، ووسيلة من وسائل التعامل مع الوحي والواقع، إضافة إلى اعتبار العلم قضية جوهرية في الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، وجعل النزعة العلمية من أهم مقومات هذا التراث وخصائصه،

٦- التوجه القيمي والمقاصدي للتراث الإسلامي في عمومه؛ بحيث أصبحت منظومة القيم والمقاصد العليا الإسلامية أساسية في الكثير من جوانب هذا التراث الفكري والعلمي والأدبي والفني...

٧- النزعة التراكمية والبنائية في مسارات ومسالك، ومنتجات بعض أوجه التراث العلمية والفكرية؛ مما أدى إلى تراكم الكثير من الخبرات

---

[٢٣] وليس أدل على ذلك مناهج أصول الفقه والفقه، ومناهج الحديث والتفسير، ومناهج أصول الدين وعلوم الكلام، ومناهج العلوم الدينية والإنسانية والطبيعية والكونية عامة. وقد كان المنهج التجريبي من أهم سمات ومنتجات الحضارة الإسلامية.

والمعارف والعلوم، وتطورت بشكل لافت أخذين بعين الاعتبار الظروف والشروط المحيطة بكل فترة أو حقبة تراثية.

٨- الأصالة والانفتاح والتواصل والاستمداد. فهو يعبر من جهة على الأصالة في الكثير من جوانبه وقيمه وفلسفاته ومقاصده وقيمه ومنهاجيته لأنه لم يكن مستوردا بالكلية أو مستعارا من نموذج مغاير، ولكنه صناعة إسلامية أصيلة تفاعلت مع الواقع والتحديات التي واجهت المجتمعات الإسلامية، وهو كذلك يعبر عن الإنفتاح والتفاعل الايجابي مع خبرات الحضارات والثقافات في فتراته المتعددة من جهة أخرى، يقدم لها ويستمد منها.

٩- كما تميز التراث الإسلامي كذلك بالقدرة على الاستيعاب للأحداث والتحديات، والوافد من الفكر والمعارف والخبرات، وأبان عن تنوع ومرونة معتبرة في التعاطي والتفاعل والآخذ والعطاء، وخاصة في مجالات الفكر والمعرفة والعلوم المتنوعة، والفنون والآداب. كما تميز هذا التراث بالقيمية والمعيارية في الكثير من أطروحاته ونظرياته ومناهجه؛ بحيث جعل القيم والأخلاق والمقاصد أُساسا معتبرة في الكثير من العلوم والمعارف والفنون.

١٠- تأسيس الكثير من مضامين التراث على الحقبة الأولى لتطور الإسلام في العصر النبوي وعصور الخلفاء الراشدين والتابعين (الفترة التأسيسية الأولى)، يعطيه الكثير من القوة والنقاء والصفاء، ويزوده بالكثير من المبادئ، والقواعد، الضوابط، والموجهات، والأدوات التي تعين على تقويم التراث وتجديده المستمر، وتكاد تكون هذه الحقبة التأسيسة الأولى بمثابة الأرضية المرجعية التي كان لها الدور الكبير في تطور التراث، وانفتاحه، وتفاعله مع

الحضارات والمجتمعات الإنسانية مع بقاءه مرتبطا ومشدودا بتلك الفترة بما لها من تأثير التوجيه والالهام المستمر.[٢٤]

تأسيسا على هذا الإطار النظري التوجيهي العام، ينبغي للباحثين والمشتغلين بالتراث أن يعالجوا القضايا الخاصة به، ويتعاطوا مع الإشكالات والتحديات والتساؤلات الكبرى التي تطرح عليه في واقعنا المعاصر من أجل التمييز بين عناصر القوة والضعف فيه، وبناء المقاييس والمعايير الأصيلة التي ينبغي استخدامها للتعامل مع التراث الإسلامي فهما وتحليلا ونقدا وتقويما واستفادة وتطبيقا وتطويرا وتحسينا، وتركا لما لا ينفع في زماننا هذا مع بقاء واجبات احترام التراث ومسؤوليات حمايته، والمحافظة عليه قائمة وحاضرة في الوعي الجمعي الأصيل للأمة الإسلامية.

ثانيا: المقاربة الحضارية في تفعيل التراث: المتطلبات والمداخل والتأطير المنهجي

١- متطلبات عملية تفعيل التراث ومداخلها الكبرى

بناء على "المقاربة الحضارية" ينبغي تناول التراث بطريقة منهجية متكاملة. وعليه فإن عملية التفعيل نفسها لابد وأن تخضع للعديد من الشروط والمتطلبات. ومن أهم متطلبات تفعيل التراث أن تُدرك "العملية" على أنها عمل ونشاط علمي مخطط ومنظم. وبعبارة أخرى تفعيل التراث يحتاج إلى: ١) وجود رؤية تحدد وجهة التفعيل ومبرراته واستراتيجياته وخططه وآفاقه، ٢) وإلى وجود منهج لذلك، وهنا يصبح الموضوع الأساسي للتفعيل هو عالم المناهج والكيفيات والطرائق الكفيلة بتجسيد حقائق ومعاني تجديد التراث وتفعليه في الواقع، ٣) وإلى مشروع لتفعيل التراث، وهنا

[٢٤] هذا لا يعني تقديس التراث أو اخراجه عن طبيعته البشرية، وإنما هو لتأكيد دور المرجعية والفترة التأسيسة في توجهات التراث وخصائصه الكبرى. وأما على مستوى التجليات والتطبيقات والمضامين والإنتاج العلمي والفكري فكله ينبغي أن يخضع للتحليل والنقد والتقويم والتوجيه على ضوء معيار الوحي.

يصبح الموضوع الأساسي للتفعيل هو المشاريع والمخططات والبرامج الكفيلة بإحداث التفعيل المطلوب للتراث، ٤) وإلى وعي وسلوك وتثقيف وتربية وتعليم وممارسة تسمح باستلهام ما يلائم من التراث وتطبيقه وممارسته بالأشكال والطرق والكيفيات المعاصرة، ٥) وإلى وسائل وأدوات ومؤسسات، وهنا يصبح موضوع تفعيل التراث الأساسي هو البحث في عالم التنظيم والاستخدام للمعلومات والتكنولوجيات والوسائل المتنوعة، والمؤسسات المتخصصة في تفعيل التراث وتطبيق ما يصلح منه لظروفنا وأوضاعنا. ومن ثم فعند الحديث عن تفعيل التراث بوصفه عملية منهجية مركبة، فالحاجة ماسة إلى المقاربة الحضارية التي تحاول الورقة إبراز أهم معالمها.

ومن هذا الموقف المنهجي، فإن تفعيل التراث إذن ليس بالعمل الاعتباطي أو الارتجالي أو السطحي أو الفوضوي الذي يقوم هنا وهناك بدون تخطيط وتنظيم وتوجيه، ولكنه ذلك الفعل المنهجي المنظم والموجه والمخطط والعميق الذي يستهدف إعادة النظر في بنية التراث، ومضامينه، ومكوناته، ومناهجه، ومصادره وفق مقاربة واضحة، ومناهج علمية أصيلة وملائمة لطبائع التراث وروحه. ويمكن تعريف تفعيل التراث على أنه ذلك الفعل الجماعي المنهجي المخطط الذي ينطلق من مقاربة حضارية متكاملة تستوعب بعمق حقيقة التراث، وتحدد بدقة مكامن القوة والضعف فيه، وترصد مدى انسجامه مع النموذج الحضاري التوحيدي، وتقوم بتفعيله وفق منهجية واستراتيجية ملائمة من أجل اعادة تقويمه، وغربلته وادماجه واستلهام ما ينفع منه في بنية الوعي والتفكير والسلوك والثقافة والممارسات الحالية والمستقبلية.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى العمل العلمي الرائد الذي قدمه فتحي ملكاوي تحت سلسلة التراث التربوي الإسلامي وعنوانه بـــــــــــ: التراثى

التربوي الإسلامي[٢٥]: حالة البحث فيه، ولمحات من تطوره، وقطوف من نصوصه ومدارسه، وهو من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وأهمية هذا العمل العلمي المنهجي تكمن في تأطيره لمسألة التراث الإسلامي عامة، والتراث التربوي خاصة برؤية ومنهجية معرفية متكاملة ومتقدمة، وضعت هذا التراث في سياق منهجي ثقافي معرفي متكامل. وبهذا العمل- الذي يعتبر نموذجا تطبيقيا متميزا للمقاربة المتكاملة للتراث- يكون الدكتور ملكاوي قد قدم نموذجا منهجيا للتعاطي مع التراث، بعد أن أطره تأطيرا معرفيا، ووفر لنا تطبيقا عمليا في مجال التراث التربوي الإسلامي، وفتح لنا آفاقا منهجية ومعرفية للدراسة العلمية الموضوعية المسؤولة للتراث، والنظر فيها دراسة وفهما وتحليلا ونقدا وتقويما واستفادة.

إذا كانت عملية تفعيل التراث منهجية ومنظمة، فإن تناولها تحتاج إلى التأكيد على مجموعة من المداخل الكبرى التي ينبغي توظيفها واستخدامها لولوج "عالم التراث"، ومن أهمها:

أ- أ-مدخل الوحي (قرآنا وسنة بوصفه المرجعية والمعيار الأعلى الحاكم والمهيمن والمحفوظ وهو خارج عن التراث البشري).

ب- ب-مدخل الرؤية الكونية الإسلامية المستخرجة من الوحي والمستهدية به،

ت- ت-مدخل النظرية المعرفية الموجهة للتراث،

ث- ث-مدخل المنظومة القيمية الأخلاقية المقاصدية الحاكمة للتراث،

ج- ج-مدخل المنظومة المنهجية وأدواتها المتلائمة وطبيعة التراث،

---

[٢٥] وعلى الرغم من تركيزها على التراث التربوي الإسلامي إلا أن في الكتاب توجيهات ومداخل منهجية ومعرفية مفيدة للغاية في تطوير الرؤية المتكاملة للتعاطي مع التراث وتفعليه.

ح- ح-مدخل مصادر التراث المتنوعة والمتداخلة بين ما هو وحي وما هو نتاج عقلي وخبرة بشرية، وتفاعل حضاري مع الأمم والأديان والثقافات الأخرى،

خ- خ-مدخل آليات وأدوات كشف نقاط القوة والضعف في التراث، والقيام بالتصويب المطلوب.[٢٦]

٢- مركزية مرجعية الوحي في المقاربة الحضارية للتراث

وفي هذا السياق ونظرا للأهمية القصوى لمدخل معيار الوحي ومرجعيته العليا، ينبغي التأكيد على دوره ووظيفته المركزية في عمليات تفعيل التراث وتجديده. والوحي قرآنا وسنة صحيحة كان هو المرجعية الكبرى لهذا التراث؛ يُرجع إليه ويستهدي بنوره، ويُسترشد بقيمه ومقاصده وأخلاقه، ويتبع مناهجه وعقائده وشرائعه وسُننه وقوانينه، ويُوزن به ما اعترى هذا الانتاج البشري من قصور أو نحوع عن الجادة فيقومها ويرجعها إلى نصابها. ومن ثم فلا مجال للحديث عن الوحي وكأنه إرث وتراث بشري في عداد التراث الإسلامي. يقول فتحي ملكاوي: "ونحن نختار أن نتحدث عن التراث الإسلامي بوصفه اجتهادات العلماء المسلمين التي كتبوها في حقول العلوم المختلفة، فورثناه عنهم، وهذا التراث الذي بين أيدينا هو موضوعات

---

[٢٦] وهذا المدخل مطلوب للكشف عن بعض الجوانب الإشكالية في التراث الإسلامي لكي لا نُغفل جانبا مهما من عملية تجديده وتفعيله. وليس من شك بأن في التراث البشري العلمي والفكري والفقهي مهما ارتقى أوجه نقص وضعف. وقد تكون هناك اختلالات وضعف في المنهجيات والأدوات التحليلية أو في بعض المضامين والمعارف والاجتهادات والنظريات والأطروحات، وفي التطبيقات والممارسات وفي المواقف والسلوكيات، وفي آليات النقد والتقويم والتجديد الذاتي للتراث، وفي الثقافة المنتجة والموجهة للتراث ومضامينه، وغيرها... ولا يمكن إدعاء أي خلل أو ضعف في التراث إلا بالدليل والحجة والبرهان والمنهج الموصل إلى ذلك على عادة مناهج أهل الصنعة والمعرفة في التراث.

للدراسة والبحث والتقويم، فالقرآن الكريم والسنة ليسا من التراث، وإنما هما المرجعية والمعيار الذي نحكم بهما على التراث."[٢٧] ومن هذه الجهة يبقى الوحي متعاليا ومقدسا ومرجعيا بالنسبة لكل التراث البشري، حاكما عليه ومهيمنا ومرشدا إلى قيام الساعة. ومن أهم ما تتأسس عليه المقاربة الحضارية ضرورة التفريق في التراث بين أصوله ومصادره العليا –التي ألهمته، ووجهت تشكيله ونموه في مختلف مراحله وأحقابه التطويرية – وهي الوحي قرآنا وسنة صحيحة، وبين النتاج البشري الذي هو كل ما أنتجه العقل المسترشد بالإسلام، ورؤيته الكونية في مختلف مجالات الحياة من فكر، وفلسفة، ورؤى، ونظريات، ومناهج، وعلوم، وفقه، ومعارف مجتمعية وحياتية متعددة ومتنوعة غطت كامل النشاط البشري في زمانها ولحظتها التاريخية. وبالتالي يصبح "معيار الوحي" هو المفتاح الرئيسي لبناء المقاربة الحضارية لتفعيل التراث الذي "يحفظ كيان الأمة وبقاءها واستمرارها."[٢٨]

ووفق "المقاربة الحضارية" التي تبنتها هذه الورقة، فإنه لا يمكن القيام بأي عمل تجديدي أو تفعيلي أو تقويمي أو نقدي للتراث بدون معيار الوحي بوصفه المصدر والمرجعية للنص الديني والخطاب الإسلامي. ومعيار الوحي هذا هو المصدر والموجه والمرشد لعمليات بناء المنظومة المقاصدية، والمنظومة القيمية الأخلاقية، والرؤية الكونية الإسلامية، والنظرية المعرفية الإسلامية، ومنظومة العلوم والمعارف في مختلف الحقول. وتقاس صحة وسلامة هذه المعارف بمدى قربها أو بعدها من المرجعية وهي الوحي.

---

[٢٧] فتحي حسن ملكاوي، **التراث التربوي الإسلامي: حالة البحث فيه، ولمحات من تطوره، وقطوف من نصوصه ومدارسه**، سلسلة التراث التربوي الإسلامي (١)، منشورت المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (الأردن: مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، ٢٠١٨)، ص ٢٥.

[٢٨] فاطمة فائزي، التراث الديني مفهومه ووظيفته في الشعر العربي المعاصر، **صحيفة المثقف**، العدد: ١٧٦٦، ٢٣/٠٥ /٢٠١١.م

وإذا ما أدركنا حقيقة التجديد للتراث ومتطلباته ومقوماته وطبيعته والسنن المتحكمة فيه وأبعاده الحضارية والتاريخية والكونية العالمية العامة، فإننا نكون في وضع يسمح لنا أن نرى مباشرة الدور الفاعل والحيوي الذي يمكن أن تؤديه الرؤية الكونية التوحيدية[٢٩] في كامل الفعل التفعيلي للتراث. وإذا كان التفعيل والتجديد للتراث فعلا منهجيا حضاريا مركبا بحاجة إلى نظرية ومنهج ومشروع ووعي ومؤسسات ونظام توجيهي شامل، ونسق تربوي وإطار ثقافي حيوي، فإن موقع الوحي والرؤية الكونية الإسلامية في كل هذه المسائل أساسي ولا غنى عنه. والرؤية الكونية الإسلامية هي في الحقيقة المصدر والموجه والمُفعل والمشكل الرئيس لرؤيتنا للتراث وما ينبغي أن يكون عليه، وكيف ينبغي أن ننقده ونقومه ونوظفه ونستمد منه ما ينفع.

ولهذا السبب وعندما يغيب معيار الوحي والمرجعية التوحيدية العليا في قراءة التراث وتفعيله، نجد أن معظم الأيديولوجيات والأطروحات والمناهج الحداثية والعصرانية التي طبُقت على التراث باءت بالفشل، وانتحرت ذاتيا حتى ولو بدت رائجة في بعض الأسواق والعقول. ومآلها لا ريب إلى أن تصبح زبدا مدموغا، لأنها تؤدي في معظمها إلى الفوضى والغموض والتفكيك السلبي للتراث، "وتقودنا فوضى القراءة إلى الشك في كل شيء في نهاية الأمر، وهو ما يعيدنا مرة أخرى إلى ارتباط نظريات التلقي الجديدة، التي لا تقول بتعدد قراءات النص الواحد، بل بلا نهائيتها، باستحالة المعرفة اليقيني."[٣٠] "ولذا فإن استصحاب هذا الموقف النقدي من القراءات

---

[29] See, Allahbuhsh K. Borhi, "The Quran and Its Impact on Human History, in **Islam: Its Meaning and Message**, Edited by: Khurshid Ahmad, Foreword by: Salem Azzam, Second Edition (London: The Islamic Foundation, 1980).

[٣٠] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، (من البنيوية إلى التفكيك)، **عالم المعرفة**، ذو الحجة، ١٤١٨-١٩٩٨، ص١٠٥.

المعاصرة غير المنهجية في الفكر العربي يفتح المجال أمام كشف عوارها المنهجي، وبيان مدى تمثلها للطرق الموصلة إلى المعرفة السليمة من غيرها."[٣١]

ومن ثم، فإن مسألة معيار الوحي والمرجعية التوحيدية العليا هي المؤطر الأساسي، والضابط الحاكم ليس فقط للتراث الإسلامي، ولكن -قبل ذلك- للإنسان وللنفس الإسلامية، وللثقافة والحضارة وللمجتمعات الإسلامية. ولهذا فإن أي قراءات أو مناهج أو حلول تُقترح لتفعيل التراث وتجديده واستنهاض ما هو مازال نفعا منه لأوضاعنا، لن يكون موفقا إلا بإلتزامه بمعيار الوحي وبالمرجعية الإسلامية العليا. وفي هذا السياق وضع مالك بن نبي توجيها حضاريا عاما، وقاعدة منهجية في التعامل مع الواقع الإسلامي تاريخه وتراثه وحاضره ومستقبله في قوله: "وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته أما أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تضييعا للجهد ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار."[٣٢]

وعليه يحتاج دعاة تفعيل التراث إلى أن يدركوا حقيقة أن معيار الوحي والمرجعية الإسلامية هي المدخل الطبيعي والفطري لتحقيق أي تجديد وتفعيل لهذا التراث، لأن ذلك يربطه بأصوله وبمحيطه الثقافي والحضاري الطبيعي، وبروحه التي ألهمته ونفخت فيه صبغتها ودلالاتها الأولى. ولقد بينت لنا المناهج الحداثية والعصرانية، وما بعد الحداثية، وما بعد العولمة التي لم تراع فيها موقع الرؤية الكونية الإسلامية في التعامل مع التراث، ولم تكترث بحقيقة واقع الأمة، وتشكيلها الديني والثقافي والتراثي أن مآلها الفشل الذريع. إن أي تجديد أو تفعيل للتراث لا يدرك هذا

---

[٣١]- طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ط٣)، ص ٨١.

[٣٢] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م)، ص ص ٤٧-٤٨.

الموقع الحيوي الحساس للرؤية الكونية الإسلامية، فإن يعمق أزمة جهل التراث والاستنقاص من قيمته ودوره. وكل طرح لا يقدر هذا الموقع والدور فإنه يخفق "في تحقيق آمال الأمة الإسلامية لأنه جهل أو تجاهل المعادلة الخاصة بهذه الأمة التي تطبع تفكيرها وتوجه سلوكها وتحكم مشاعرها وعواطفها أي أنه لم يحط خبرا بجذورها الضاربة في أعماق التاريخ الإسلامي الطويل فظن أنه بإمكانه تحويل وجهتها واقتلاعها من جذورها بتغيير محيطها الخارجي كما تدعي النظرية الشيوعية في التغيير فكان أن أخفقت كل الحلول التي تعارضت مع قيم الإسلام مبادئه وروحه."[٣٣] وهذا الأمر يؤكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أنه: "لابد أيضا أن نتذكر أن أي عمل حضاري يتألف من عدد من المكونات بعضها عقائدي وبعضها قومي وبعضها فني. ولا شك أن للعقيدة الدور الأول في حث الإنسان على الاندفاع للقيام بهذا العمل."[٣٤]

ومعيار الوحي ينبغي أن يكون مقياسا خارجا عن التراث ولا تسري عليه أحكام التراث البشري ومنهجياته العقلية. والنص يبقى نصا موجها نستهدي به وحاكما ومهيمنا نرجع إليه في معايرة التراث وقياس مدى صوابيته وصحته ومدى اقترابه وابتعاده من روح الوحي قرآنا وسنة صحيحة مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]. ومن ثم ينبغي تأكيد وتفعيل عملية "الهيمنة القرآنية" على التراث الإسلامي خاصة والتراث الديني عامة، وللن يتم ذلم إلا بتطوير معايير هيمنة الوحي في عمليات تقويم التراث ووزنه بالقسطاس المستقيم. ويشير فتحي ملكاوي إلى بعض الخطوات العملية التي ينبغي اتخاذها على طريق بناء مقاربة متكاملة يكون فيها لمعيار الوحي وللرؤية الكونية

---

[٣٣] الطيب برغوث، **الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية**، (الجزائر: دار البعث، ط١، ١٩٨٥م)، ص ٥٧.

[٣٤] سيد دسوقي حسن، **مقدمات في مشاريع البعث الحضاري**، (الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٧م)، ص ١٢٩.

الإسلامية الأولوية بقوله: "أما الرؤية نفسها فهي في حقيقتها رؤية كونية تستدعي مشروعا إصلاحيا فكريا حضاريا من منظور إسلامي. ويتطلب هذا المشروع ثلاث خطوات أساسية: الخطوة الأولى هي: إعادة فهم مصادر الإسلام في ضوء القيم الحاكمة والمقاصد العامة، ونقد التراث الذي دار في هذه المقاصد على أساس تلك القيم والمقاصد. والخطوة الثانية هي التفاعل الإيجابي مع المعرفة الإنسانية المعاصرة...وأما الخطوة الثالثة فهي صياغة المعرفة الراهنة وإنتاج معارف جديدة ضمن الرؤية الكونية الإسلامية تقوم على التكامل بين هداية الوحي وسنن الفطرة، وسعي الإنسان لفهم الكون الطبيعي والاجتماعي والنفسي."[٣٥] وفي هذا السياق وبهذا العمق ينبغي لنا أن نعالج التراث، ونحدد دوره ووظيفته في هذا المشروع الحضاري الراهن للعالم الإسلامي.

٣- المقاربة الحضارية وأهمية المنهج في تفعيل التراث

ومن أهم ما تؤكد عليه "المقاربة الحضارية" بالإضافة إلى ما سبق من المداخل والتوجيهات موضوع ضرورة المنهج للخروج من الارتجال والتعاطي العاطفي والايديولوجي مع التراث. والتراث مهما كانت عوامل الضعف فيه، وبعض الاختلالات التي اعترت مضامينه ومناهجه، يبقى قيمة مضافة فريدة من نوعها في تاريخ الأمة الإسلامية وحاضرها ومستقبلها. ولا يجوز بأي حال من الأحوال التطاول عليه أو الاستنقاص من قيمته وقوته، وإنما ينبغي النظر فيه بطريقة منهجية منظمة، إذ بدون منهج ملائم لدراسته وتفعيله فلن يجدي التقطيع فيه والاستنقاص من قيمته، والتهوين من منجزاته التي لا ينكرها إلا حاقد أو مغرض أو جاهل فقد وعيه، وزال

---

[٣٥] ملكاوي، **منهجية التكامل: مقدمات في المنهجية الإسلامية**، (الولايات المتحدة الأميريكية، هرندن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م)، ص ٤٧.

رشده. ومن ثم ينبغي تأكيد ضرورة النظر في "الجوانب المنهجية في تلقي المعرفة الإسلامية ونقد التراث، لما للمنهج من خطر عظيم في إدراك الحق أو الانزلاق نحو الباطل، والالتزام بهذه القواعد المنهجية من أجل ما ينبغي أن يعنى به الناظرون في الفكر الإسلامي قبل النظر والتلقي والاستيعاب، إذ سلامة المنهج سبيل الرشاد في فهم التراث."[٣٦]

وفي نفس السياق يؤكد عماد الدين خليل أهمية وخطورة ووظيفة المنهج عموما في أي عمل علمي نقوم به، ناهيك عن نشاط تفعيل التراث وتجديده بقوله: "ونعرف أنه دون منهج، فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء."[٣٧] وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة حاسمة في التعامل التراث الإسلامي، وهي أنه ليس كل منهج أو نسق تحليلي ينفع في التعاطي معه ودراسته منهجيا كما هو منطق الكثير من الحدثيين والعصرانيين المتعالمين الذي أبعدوا النجع في تشويه التراث، وتفكيكه بمناهج وأدوات وأنساق تحليل لا تمت بالصلة إلى هذا التراث. بل تخالف طبائعه وتضاد روحه، وتقصر في الإلمام برؤيته ومصادره ومناهجه وتطبيقاته. يقول طه عبد الرحمن عن هذا الوضع المأساوي لهؤلاء الأدعياء على التراث: "أن هذه الآليات وضعت في أصلها لموضوعات مغايرة لموضوع التراث، وعلى مقتضى شروط مخالفة لشروطه، فيكون إنزالها على التراث من غير ممارسة أشد أساليب النقد عليها، سببا في التصرف فيه بغير أحكامه اللازمة له، فيؤدي هذا التصرف إلى إخراج التراث

---

[٣٦] الحسين العلمي، **معالم في منهج المعرفة ونقد التراث**، (المغرب: منشورات معهد الغرب الإسلامي (د.ت)، ص٦.

[٣٧] عماد الدين خليل، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٣ه، رقم: ٤)، ص٤٨.

على صورة لا تحافظ على بنيته في تداخل أجزائها وتساند عناصرها، إن لم تفصل بين هذه الأجزاء والعناصر فصلا، وتقابل بينها مقابلة ضاربة بعضها ببعض."[٣٨]

ويزيد في التوضيح في موضوع أخر بقوله: "كما يغلب على نقاد التراث التوسل بأدوات البحث التي اصطنعها المحدثون من مفاهيم ومناهج ونظريات، معتقدين أنهم، بهذا التقليد، قد استوفوا شرائط النظر العلمي الصحيح (...) وما لم تظهر على أيديهم هذه القدرة في الإستنباط المنهجي، فلا عبرة بما يقررون بشأن التراث وما ينشئون فيه من أقوال تنكره أو أقوال تضعفه: وإذا كان هذا عجزهم فيما نقلوه عن غيرهم، فكيف بعجزهم في مناهج اختص بها هذا التراث، وهي على ما هي عليه من مخالفة ما نقلوه! فما حصلوا من المنقول ولو على تهلهله، حجبهم عن التفطن لما يمتاز به مخالفه، وضيق عليهم الانطلاق في آفاق التراث، ظانين أن باب العلم واحد، لا يلجه من استهلك المنقول استهلاكا."[٣٩]

وكأن طه عبد الرحمن يذكرنا بنفس الموقف الذي اتخذه ابن تيمية منذ قرون من أولئك الذين يخوضون في التراث والدين بدون علم ولا منهجية صحيحة متلائمة وطبائع هذا التراث وقيمه ومصادره، فيقول رحمه الله: "الذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الذي عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة، يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه." [٤٠]

---

[٣٨] طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج**، ص٢٧.

[٣٩] طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج**، ص١٠-١١.

[٤٠] ابن تيمية، **مقدمة التفسير ضمن مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب: عبد الرحمان محمد بن قاسم، (الرباط: مكتبة المعارف، ج١٣)، ص٣٥٦-٣٥٧.

٤- العناصر المكونة للمقاربة الحضارية في تفعيل التراث

في نفس هذا السياق تحاول هذه الورقة تأكيد أهمية "المقاربة الحضارية" للتراث الإسلامي، وقد تعتبر تطورا طبيعيا للموقف الوسطي المتكامل للتراث الذي أشرنا إليه في مدخل هذه الورقة. والمقاربة الحضارية للتراث تنزع منزعا كليا منهجيا متكاملا يتخذ من التراث قيمة حضارية فريدة في تاريخ الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي. وتحاول هذه المقاربة رصد التراث من وجهة نظر متداخلة تجمع وتكامل بين عناصر متعددة. ويبين الشكل أدناه العناصر المكونة التي ينبغي أن تتوفر في أي عمل لتفعيل التراث والتعاطي معه وتجديده. في الشكل أدناه ستة مكونات أساسية في بناء مقاربة حضارية للتراث، ويدخل ضمن كل مكون مجموعة من العناصر وهي:

أ- المكون الأول: الأساس المرجعي والعناصر الداعمة له في التعاطي مع التراث

من أهم العناصر المكونة للمقاربة الحضارية لتفعيل التراث الأساس المرجعي والأدوات التحليلية اللازمة للقيام بعملية التعاطي مع التراث من أجل تفعليه وتجديده. وهذا تعريف مختصر بكل عنصر من هذه العناصر:

العنصر الأول: الأساس المرجعي: ويتمثل في مركزية الوحي (قرآنا وسنة صحيحة) وهيمنته في أي عمل تقويمي أو تجديدي للتراث. والرجوع إلى معيار الوحي وضوابطه وموجهاته ونواظمه العقدية والمعرفية والمنهجية والشرعية والقيمية أمر لا غنى عنه في تحليل التراث ونقده وتقويمه وتطويره وتجديده وتفعيله. ومن ثم ينبغي أولا تأسيس معيار الوحي المتكامل الشامل برؤيته، ومبادئه، ومناهجه، وآليات، وأدواته التحليلية والتقويمية قبل البدء في حفر التراث وولوج عالمه.

العنصر الثاني: الرؤية الكونية الإسلامية: من الوحي نستخرج الرؤية الكونية الإسلامية المتكاملة المرشدة لدراسة التراث، وتحليل قضاياه والموجه لعمليات فهمه وتقويمه ونقده وتطويره وتحسينه وتنقيته مما يعيبه، وتجاوزه فيما لم يعد ملائما لظروفنا وأوضاعنا مع بقائه مقدرا في تاريخ التراث بوصفه إرثا للأمة وحضارتها.

العنصر الثالث: النظام المعرفي: من الوحي نستخرج كذلك أسس بناء النظرية أو المنظومة المعرفية التراثية وتقويمها؛ بمصادرها المعرفية وضوابطها ونوظمها. وهذه المنظومة والنظرية المعرفية هي التي ستوضح لنا عمق هذا التراث وأصالته وأهدافه ومصادره وطبائعه.

العنصر الرابع: منظومة القيم الحاكمة للتراث: علينا أن نستخرج منظومة قيمية تراثية عليا تكون أداة فاعلة لدراسة التراث ومعالجة قضاياها. ولا شك بأن قوة هذا التراث تكمن في المنظومة القيمية الحضارية التي تقبع ورائه، والتي كانت الأساس والسند والموجه له في مختلف مراحله، وحقبه سواء الإبداعية الابتكارية التأسيسة أو الاخفاقية التراجعية. ونقصد بالمنظومة القيمية التراثية هنا النظام القيمي المتماسك والمتكامل المستلهم من الوحي وتعاليمه قرآنا وسنة، والمستفيد من الخبرة الإنسانية والحكمة البشرية الحاضرة والمتعينة في وعي المسلمين في أحقاب تشكيل تراثهم المتتابعة.

العنصر الخامس: المنظومة المنهجية الحاكمة للتراث: علينا أن ونستخرج المنظومة المنهجية التي ظهرت ضمن نسق التراث، وإطاره المعرفي والقيمي في تطوره التاريخي في مختلف حقبه ومراحله. وتتضمن هذه المنظومة المناهج والآليات، والأدوات التحليلية والأطر التحليلية التي ولدت في رحم التراث واستجابة لتوجيهات الوحي واستفادة من الخبرة الإنسانية الحاضرة في زمان ومكان تطور التراث.

العنصر السادس: معايير ومؤشرات قياس استجابة التراث لمعيار الوحي: ينبغي أن نضع مقياس ومؤشرات تسمح لنا بقياس مدى التزام التراث واستجابته لمعيار

الوحي، واقترابه أو ابتعاده من المرجعية الإسلامية التوحيدية. فهي الحكم الذي ينبغي أن يهيمن في قياس مدى صحة أو فساد التراث بكل تجلياته وتمظهراته.

ب- المكون الثاني: العناصر الأساسية المؤثرة في تشكيل بنية التراث وتطوره قوة وضعفا

تحتاج كذلك "المقاربة الحضارية" إلى تحديد المكونات المشكلة للترث وبنيته ويدخل ضمنها: حقول ومجالات المعرفة التراثية[٤١]، ومناهجها، ومضامينها، ومصادرها والفاعلين فيها، والسياقات التراثية[٤٢]، والواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والحضاري الذي نشأ فيه التراث في مختلف حقبه ومراحله، والتفاعل والتواصل مع التراث الإنساني الخارجي أخذا وعطاءا سلبا وإيجابا، والتطبيقات والحلول التي قدمها التراث لمواجهة تحديات الأمة في مختلف مراحل تطورها، وتعيين الحقب[٤٣] المختلفة والمتعاقبة للتراث، وكذلك تحديد الاختلالات[٤٤] والضعف الذي اعترى التراث في بعض مضامينه ومناهجه وتجلياته.

---

[٤١] المقصود هنا هو المجالات التي برز فيها التراث والحقول المعرفية والعلمية والأدبية والفنية التي اشتغل عليها وترك فيها معارف ونظريات ومناهج وآليات وتطبيقات ومنتجات وأثار نظرية وعملية في تطور التراث.

[٤٢] المقصود هنا هو السياقات والأحداث والأحوال والأوضاع والشروط والعوامل التي ظهر فيها التراث وتطور.

[٤٣] والمقصود هنا هو تقسيم التراث إلى حقب زمنية على وفق معايير معينة من أجل دراسته الفعالة والتعامل مع قضاياه على حسب الحقب والمراحل الكبرى التي مر بها، وخاصية كل حقبة ومرحلة وانتاجها وتطبيقاتها وأثارها.

[٤٤] المقصود هنا هو التركيز كذلك على تطوير منهج وآليات للتعرف على الاشكالات والاختلالات والضعف الذي اعترى التراث، وتحديدها علميا من أجل تلافي السلبيات والتركيز على الإيجابيات التي يمكن الاستفادة منها في زماننا هذا.

ت- المكون الثالث: خصائص التراث ومميزاته

يساعد هذا المكون على تفهم طبيعة التراث ومميزاته وخصائصه التي تمنحه صبغة تميزه عن غيره، وتجعله أكثر انسجاما وتوافقا مع قيم وروح المجتمع والحضارة الإسلامية، وتجعله قادرا على الاستمرار والتفاعل. وقد تمت مناقشتها من قبل في القسم الأول من هذه الورقة.

ث- المكون الرابع: أهداف التعاطي مع التراث

بناء على المقاربة الحضارية ينبغي لنا أن نحدد أهدافنا من التعامل مع التراث، إذ من الضروري أن يكون واضحا لدى الباحثين أهداف تعاملهم معه، والأغراض الذي ينشدونها من دراسته. ويمكن أن نحدد الأهداف الأساسية لدراسة التراث من طرف من يناصرونه ويتبنونه في: ١)طلب الفهم- ٢)القيام بالتحليل- ٣)القيام بالنقد أو التقويم- ٤)العمل على تطوير قضايا تراثية- ٥) الدخول في عمليات منظمة لتجديد التراث- ٦)محاولة الاستمداد وأخذ حلوله واجتهاداته وأطروحاته لتطبق في الواقع -٧) محاولة إدماج التراث ومضامينه ومنهجه ومنظوماته المتعددة في الواقع الحالي ابتغاء تفعيل التراث وتطبيقه، العمل على ترشيد التراث -٨) القيام بعمليات التوجيه- ٩) العمل على المدافعة أو الحماية للتراث....وغيرها من الأهداف. هذا من جهة من يناصرون التراث، وهناك كذلك أهداف من جهة من يحاربون التراث منها: ١) التحليل التفكيك السلبي- ٢) النقد الهدام- ٣) التقويم المتحيز- ٤) الاستقطاع والتهميش — ٥) التجميد والإقالة من مسرح الوعي والفكر والحياة-الترك والإعفاء عنه -٦) الاقصاء والتهميش والتعطيل والتحنيط- ٧) تجهيل الأمة على تراثها- ٨) التوجيه السلبي للعمل التراثي والعمل على تجاوزه...

ج- المكون الخامس: امتلاك رؤية استراتيجية لتفعيل التراث

ومن العناصر المهمة في تفعيل التراث وتجديده أن تكون هناك رؤية استراتيجية واضحة تبين آفق العمل في التراث، وغاياته، وأهدافه الاستراتيجية الكبرى، والمدايات التي سيبلغها، والتوجهات الكبرى التي ينبغي أن يسير وفقها الجهد الخاص بتفعيل التراث. وكلما كانت الرؤية الاستراتيجية لتفعيل الترث واضحة وعميقة وواقعية وجماعية كلما كان الجهد التفعيلي والتجديد للتراث أقرب إلى النجاح والتحقق منه إلى الفشل. ويمكن القول بصورة عامة بأن جهود تفعيل التراث الإسلامي وتجديده ينبغي أن تنصب حول رؤية استراتيجية تعتبر التراث قيمة حضارية مضافة للأمة في حاضرها ومستقبلها تواصلا واستيعابا، وتحليلا، ونقدا، وتقويما، واستمدادا، وتفعيلا، وتطبيقا في مختلف الحقول والمجالات الممكنة. والشكل الآتي يلخص لنا أهم مكونات وعناصر المقاربة الحضارية المقصودة في هذه الورقة.

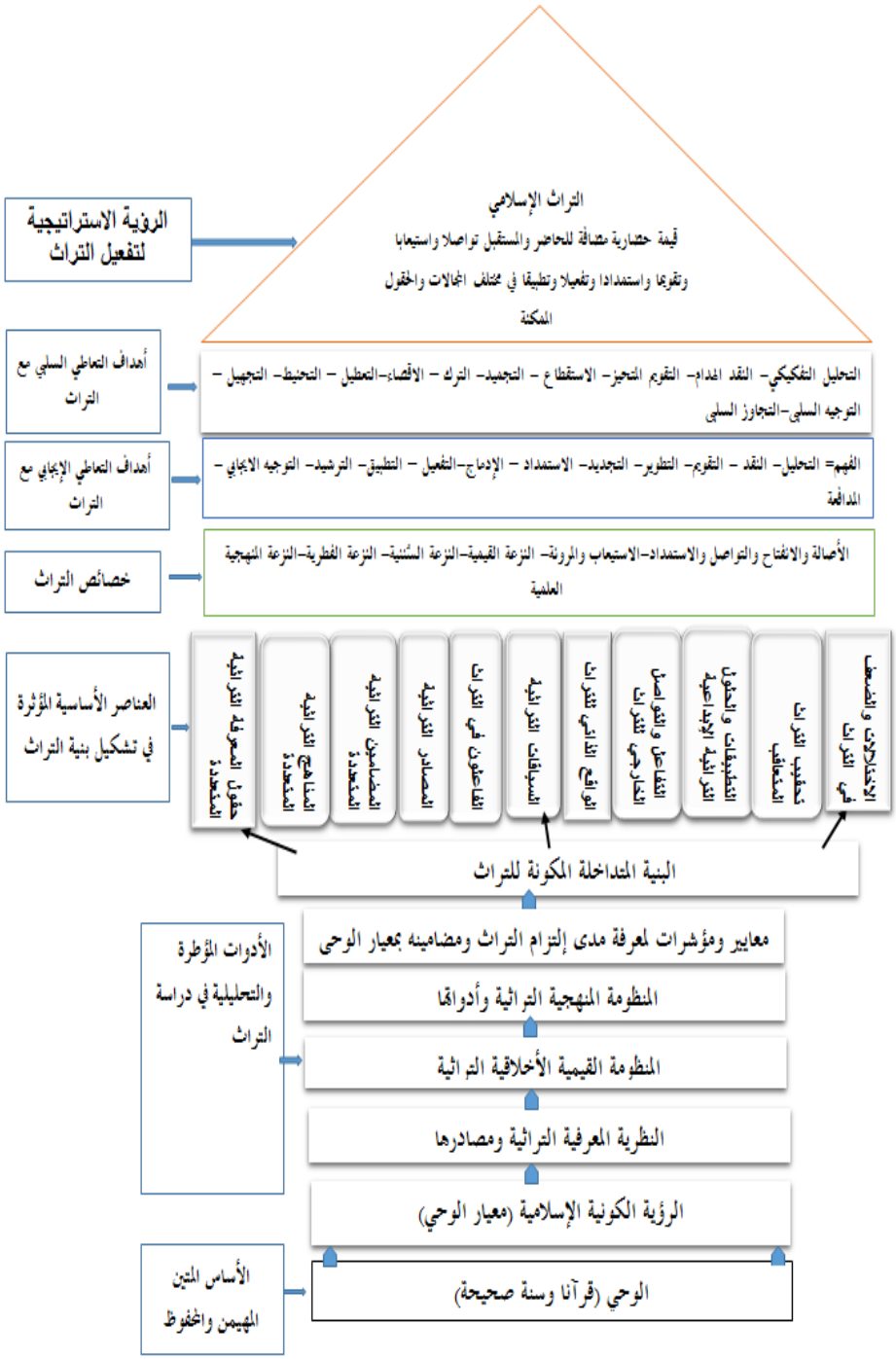

شكل رقم١: تصور للعناصر المكونة للمقاربة الحضارية للتراث الإسلامي

الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذه الجولة المقتضبة في موضوع أهمية المقاربة الحضارية في تفعيل التراث بأن عملية التعامل مع التراث حساسة ومعقدة تحتاج إلى رؤية ومنهجية متكاملة تجمع بين عناصر متعددة، وتلتزم بجملة من المبادئ والقواعد المرشدة التي تكون بمثابة الموجه لكامل العملية. وأكد البحث أن هناك ضرورة لتعريف متكامل ومنهجي للتراث لا يركز فقط على المخرجات والنتاج العلمي والفكري والفقهي والثقافي والفني...ولكن ينبغي تطوير مقاربة تجمع بين النتاج والمصادر والمناهج والسياقات والواقع والبيئة المحيطة والتحقيب للتراث، وفهم ديناميكيات التواصل والتفاعل التي تمت بين التراث الإسلامي وتراث الحضارات الأخرى في زمانه. وكذلك ضرورة الوعي على الاختلالات والضعف الذي اعترى التراث الإسلامي في بعض مراحل تطوره. كما نبه البحث إلى أنه لا يمكن تفعيل التراث وتجديده بدون معرفة موقع الوحي والرؤية الكونية الإسلامية في هذه العملية.

وبدون إدراك ذلك وتضمينه في المنهج المتبع وفي المقاربة الحضارية المقترحة، فإن عملية تفعيل التراث مآلها الفشل. وفي الأخير أوصت الورقة بضرورة العمل الجماعي من أجل تطوير المقاربة الحضارية، وتأسيسها معرفيا، وتقديم بعض التطبيقات لها لتكون مدخلا وإطارا نظريا منهجيا للقيام بعمليات تقويم ونقد واستمداد وإدماج للتراث في واقعنا المعاصر بما يتلائم وظروفنا وأوضاعنا. كما أوصت الورقة بضرورة أن نطور منظومة قيمية تراثية، ومنظومة منهجية تسمح ببناء الأدوات المنهجية الملائمة لتفعيل التراث أخذين بعين الاعتبار معيار الوحي والخبرة الإنسانية الحديثة في مجال المناهج والتعامل مع النص والتراث مؤكدين على ضرورة إخضاع أي منهج أو أداة تحليلية مغايرة إلى معيار الوحي، ومناهج التراث المستقرة قبل تطبيقها عليه. وأوصت الورقة بضرورة إدخال مساقات خاصة بالمقاربة الحضارية للتراث في برامج الجامعات

والكليات المعنية به، حتى يتوطن الفقه الحضاري والمنهج الحضاري في عقول الباحثين وممارستهم البحثية والتفكيرية والتطبيقية.

المصادر والمراجع

‘Abd al-Raḥmān, Ṭaha, *Ḥiwārāt Min Ajli al-Mustaqbal,* (Bayrūt: al-Shabakah al-‘Ārabiyyah, li al-Abḥāth wa al-Nashr, 2011).

‘Abd al-Raḥmān, Ṭaha, *Tajdīd al-Manhaj fi Taqwīm al-Turāth*, (Al-Maghrib: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 3rd ed, n.d.).

ʾAbū al-‘Azm, ‘Abd al-Ghānī, *Mu‘jam al-Mughnī*, 2011. https://shamela.ws/rep.php/book/2236.

Al-‘Ālamī, al-Ḥusayn, *M‘ālim fi Manhaj al-Ma‘rifah wa Naqd al-Turāth,* (Al-Maghrib: Manshūrāt Ma‘had al-Gharb al-Islāmī, n.d.).

Allahbuhsh K. Borhi, "The Qur’an and Its Impact on Human History, in **Islam: Its Meaning and Message**, Edited by: Khurshid Ahmad, Foreword by: Salem Azzam, Second Edition (London: The Islamic Foundation, 1980).

Al-Liḥyah, Ḥusayn, *Nihāyah al-Madrasah; al-Shughl wa al-Kafāʾāt wa al-Maʾārif,* (Al-Maghrib: Maktabah Tūbā Yadsūn, al-Dār al-Bayḍāʾ, 1st ed, 2005).

AL-Najjār, ‘Abd al-Majīd, *Muqārabāt fī Qirāʾah al-Turāth*, (Tūnas: al-Dār al-Mālikiyyah, 1st ed, 2015).

Al-Wathīqah al-Murāfiqah Liminhāj al-Lughah al-‘Ārabiyyah, Wizārah al-Tarbiyyah al-Waṭaniyyah, (Al-Jazāʾir: al-Dīwān al-Waṭanī li al-Mawḍū‘āt al-Madrasiyyah, 2003)

Barghūth, al-Ṭayyib, a*l-Da‘wah al-Islāmiyyah wa al-mu‘ādalah al-Ijtimā‘ayyah*, (Al-Jazāir: Dār al-Ba‘th, 1st ed, 1985)

Dusūqī, Sayyid Ḥasan, *Muqaddimāt fi Mashārī‘ al-Ba‘th al-Ḥaḍārī,* (Al-Kuwayt: Dār al-Qalam li al-Nashr wa al-Tawzī‘, 1st ed, 1987).

Fāʾizī, Fāṭimah, *al-Turāth al-Dīnī Mafhūmuh wa Waḍīfatuh fi al-Shi‘r al-‘arabī al-Mu‘āṣir,* Ṣaḥīfah al-Muthaqqaf, al-‘adad: 1766, 23/05/2011.

Ḥamad, Maḥfūẓ, *al-Islām wa al-Gharb wa Ḥiwār al-Mustaqbal*, (Miṣr, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 2004).

Ḥamūdah, ʻAbd al-ʻAzīz, al-Marāyā al-Muḥadabah Min al-Bunyawayyah Ilā al-Tafkīk, *ʻālam al-Maʻrifah*, Dhū al-Ḥijjah, 1418H-1988.

Ibn Nabī, Mālik, *Shurūṭ al-Nahḍah*, translation ʿUmar Kāmil Masqāwī & ʿAbd al-Ṣabūr Shāhīn, (Dimashq: Dār al-Fikr, 1st ed, 1981)

Ibn Nabī, Mālik, *Wajhah al-ʿālam al-Islāmī*, translation ʿAbd al-Ṣabūr Shāhīn, (Dimashq: Dār al-Fikr, 1st ed, 1986).

Ibn taymiyyah, ʻAbd al-Ḥalim, *Muqaddimah fī Uṣūl al-Tafsīr Ḍimna Majmūʻ al-Fatāwā*, Jamʻ wa Tartīb ʻAbdu al-Raḥamān bin Muḥammad bin Qāsim, (Al-Ribāṭ, Maktabah al-Maʻārif, n.d, n,p).

Jabrān, Masʿūd, *Muʿjam al-Rāʾid*, (Lubnān, Dār al-ʿālam li al-malāyyīn, 1992).

Khalīl, ʻImād al-Dīn, *Ḥawla Iʻādah Tashkīl al-ʻAql al-Muslim*, Kitāb al-Ummah, (Qaṭar, Wizārah al-Awqāf wa al-Shuʾūn al-Islāmiyyah, 1403H, n: 4).

Malkāwī, Fatḥī Ḥasan, *al-Turāth al-Tarbawī al-Islāmī: Ḥālah al-Baḥth Fīh, wa Lamaḥāt min Taṭawwurih, wa Quṭūf min Nuṣūṣih wa Madārisih*, Silsilah al-Turāth al-Tarbawī al-Islāmī (1), Manshūrāt al-Maʻhad al-ʿālamī li al-Fikr al-Islāmī, (Al-Urdun, ʿAmmān: Markaz Maʻrifah al-Insān li al-Dir āsāt wa al-Abḥāth wa al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 2018**).**

Malkāwī, Fatḥī, *Manhajiyyah al-Takāmul: Muqaddimāt fi al-Manhajiyyah al-Islāmiyyah,* (USA, Hirndun: al-Maʻhad al-ʿālamī li al-Fikr al-Islāmī, 1st ed, 2016).

Muʻjam al-Mʻānī al-Jāmiʻ, https://www.almaany.com/ar//dict/ar-ar//

Salāmah, Mūsā, al-Yawm wa al-Ghad, (Al-Qāhirah: Maktabah Salāmah Mūsā li al-Nashr wa al-Tawzīʻ, 1st ed, 1928).